الرمزية الحرفية في العرفان الصوفي

أ. طارق زيناي
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصُّوف ميلة
zinaitarek@gmail.com

تاريخ الوصول : 2018/09/17/ القبول:2019/02/17 /النشر على الخط:.....
Received :.....l Accepted :.....l Publishedonline :.....

المُلَخَّصُ :

إن المطالع لما كتب في الفكر الصوفي عن العرفان، يجد أن مباحث هذا الأخير قد استأثرت باهتمام محققي هذا الفكر قديما، وبالدارسين المهتمين به حديثا، ولعل محاولة الاطلاع على ما كُتِب في أي مبحث أو نظرية أو حقل معرفي منه، تصطدم بتشعب ما كُتِبَ تارة وغموضه واستغلاقه تارة أخرى، مما يجعل الباحث في كثير من الأحيان يقع تحت مطرقة الحيرة وسندان العجز، ولما كان العلم لا يُدرك إلا بالتعب والحرص والصبر، جاءت هذه الدراسة محاولة الحفر عند عتبات هذا العرفان في مبحث من بين أهم المباحث فيه، والتي سال فيها حبر كثير قديما عند القوم، ألا وهو مبحث الرمزية الحرفية، وترجع أهميته لأنه علم الأولياء الذي اختصهم الله به؛ ففتح عليهم من خلالها أسرارا وحقائق من عنده، ولكن هذا العلم قد حاد في مسيرته النورانية في كثير من الأحيان عن جادته، واختلط بعلوم مشبوهة استغلها أصحابها في السحر والدجل والشعوذة.

الكلمات المفتاحية : الرمز؛ اللغة؛ الحرف؛ العرفان؛ التصوف.

Abstract:

The view of what has been written in the mystical thought of gratitude, finds that the discussion of the latter has captured the attention of investigators of this thought in ancient times, and the scholars interested in it recently, and perhaps the attempt to see what was written in any subject or theory or knowledge field, collides with the complexity of what was written sometimes and ambiguity And closing it at other times, making the researcher often falls under a puzzling hammer and anguish deficit, As the science is not only aware of fatigue and diligence and patience, this study came at the attempt to dig at the thresholds of this mysticism in the study of some of the most important mabahith,

where the ink of many old folk, where is the study of symbolism and craft, Through it, opened them through the secrets and facts from him, but this science has sharp in the process of the light often from his grandfather, and mixed with the science of suspicious exploited by the owners in magic and magic and sorcery.

key words:

Symbol; Language; Craft; Mysticism; Sufism.

مَقَدَّمَةٌ :

يشكل الحرف في العرفان الصوفي واحدا من أهم المحطات الرمزية التي استوقفت العرفاء قديما، فراحوا في تأويله مذاهب شتى على حسب ما انتهى إليه كشفهم، فنظروا له من منطلق مستواه البنيوي الذي يتشكل منه الكلام فتتبعوه حرفا حرفا، وأعطوا لكل واحد معنى صوفيا يدلُّ عليه، ويخالف ما عليه صاحبه، بل إنهم ذهبوا أبعد من هذا لما عدوا الحرف أمة من الأمم المكلفة، بل إن « عالم الحروف أفصح العالم لسانا، وأوضحه بيانا »[1] كما يقول ابن عربي، ولهذا فهو يدخل في عموم قوله تعالى : ((وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [الإسراء : 44].

وقد نظروا إليه في مستواه التركيبي فرأوا أنه يحمل مع غيره معان تخرج به من حيز العبارة والنظم والإفهام إلى حيز الإشارة والشطح والإبهام.

إنَّ محاولة الاقتراب من مثل هذه المحطة العرفانية لهو تحد ومغامرة في الوقت نفسه، كيف لا ؟ وأن هذا المبحث تتجاذبه حقول معرفية عديدة، لا نتكلم عن الصرف والنحو واللغة والبلاغة والأدب والفقه والتوحيد والعقيدة، فهذه مقاربات ظاهرة مباشرة للحرف لا يتعدى البحث فيها مجالها المعروف ومباحثها الواضحة، بل يتجاذبه المقدس والمدنس والعلوي والسفلي والملكي والشيطاني والعرفان والسحر، من هذا المنطلق سيحاول الباحث ركوب هذا المرتقى الصعب والمضي قدما نحو هذا البحر العباب، ولكي نهتدي للطريق الصحيح المراد سلوكه لابد لنا من تحديد إشكالية واضحة، يُعمل على استيفاء الكلام فيها والإجابة عنها : كيف استقبل المحققون من الصوفية الزخم الرمزي للحرف الذي وصلهم من أسلافهم العرفاء، ونخصُّ أبا منصور الحلاج، بل وقبل ذلك في التراث الروحي الإنساني كله؟ وهل استطاعوا أن يخرجوا بمباحثه من أطره الضيقة إلى فضاءاته الواسعة، بحيث يمكن أن نتكلم عن علم مستقل بذاته له أسسه ونظرياته وجهازه المصطلحي والمفاهيمي؟ أيضا ما هي مستويات مقاربة الحرف عرفانيا عند القوم، وهل باستطاعتنا

(1) - الفتوحات المكية، ج01، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1992، ص260.

تصديق ما جاءنا عنهم من قدرة الحرف وتأثيره سواء في حساب الجُمَّل أو الوفق، أم أنه محض ادعاء ودوغمائية صوفية تفتقر للدليل والبرهان؟ فهذه الأسئلة وغيرها ستحاول هذه الدراسة الاقتراب منها وكشف نقاب الغموض عنها، ولكي نتدرج في هذا الطرح لابد من التطرق لمفهوم الحرف في اللغة والاصطلاح :

الحرف لغة :

الحرف : طرف الشيء وحده، وقد ورد في القرآن في قوله تعالى: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ)) [الحج : 11]، وقد جاء عند الراغب الأصفهاني قوله فيه : « حَرْفُ الشيء: طرفه، وجمعه: أحرف وحروف، يقال: حرف السيف وحرف السفينة، وحرف الجبل، وحروف الهجاء: أطراف الكلمة، والحروف العوامل في النحو: أطراف الكلمات الرابطة بعضها ببعض (...) وتَحريفُ الشيء: إمالته، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين، قال عزّ وجلّ: ((يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ)) [النساء/ 46] ، ((ويُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ)) [المائدة/ 41]»[1]،

إنَّ الطرح اللغوي الذي يجعل معنى الحرف هو طرف الشيء وحده أو دلالته على الانحراف أو التحريف التي أتى بها القرآن الكريم في الآيات الثلاثة السابقة، سنجد لها تخريجات في محطات عرفانية كثيرة تفهم تصريحا أو تلميحا.

الحرف اصطلاحا :

لا نكاد نقدم جديدا في ذكرنا لدلالة الحرف في معهود كلام العرب أو في الدرس اللغوي، بوصفه أصغر وحدة صوتية يمكن أن تشكل معنى، كما في حروف المعاني، أو لا تدل على معنى في ذاتها كما في حروف المباني، أو أنه الرموز الجزئية التي تتشكل منها الكلمات، وتتحدد بها الألفاظ، ولكننا سنشير فقط لمعناها في الاصطلاح الصوفي، لأنه هو المقصود من دراستنا:

يقال : إنما سميت هذه الحروف بحروف المعجم « لأنها عجمت على الناظر فيها معناها »[2] أي خفيت واستشكلت، ولعل هذا التخريج سنجد له صدى فيما يستقبل من رمزية الأحرف في الطرح الصوفي.

إن مفهوم الحرف في العرفان الصوفي يتجاوز التحديدات الظاهرة، في علوم اللغة المختلفة من حيث دلالاته ومعانيه، فهو مفهوم زئبقي لا يمكن الإمساك بمفاصله وحدوده عند العرفاء الذين

([1])- المفردات في غريب القرآن، تح : صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق / بيروت، ط01، 1412هـ، ص 228.

([2]) - محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج01، مصدر سبق ذكره، ص232.

تكلموا عنه، بل إننا لنجد صعوبة في القبض على معنى واضح له عند واحد منهم، كابن عربي أو النفري أو ابن سبعين على سبيل المثال، وهؤلاء يحسبون على التصوف فما بالك ممن يحسبون على أسرار الحروف وعلومه من الروحانيين الآخرين.

أوليات التأليف في علم أسرار الحروف :

إنَّ الملاحظ لما كتب في الفكر الصوفي حديثا، يرى غيابا شبه تام للدراسات المتخصصة في البحث عن الرمزية الحرفية أو قل عن مبحث الحرف في مضمونه الصوفي، ويرجع أحد الباحثين سبب ذلك لعدة عوامل نذكر منها يأتي [1] :

1/ إن مبحث الحرف ذو علاقة وطيدة باللون الثاني من التصوف الإسلامي، وأعني به التصوف العرفاني الذي من أعلامه الجيلي وابن عربي وابن سبعين وغيرهم ممن تصعب قراءة ما كتبوا فضلا عن فهمه دون مفاتيح أساسية تساعد على ذلك.

2/ توجد علاقة وطيدة بين مبحث الحرف والحساب من جهة والفلك الروحاني من جهة ثانية وهو مبحث معقد تتعدد تفريعاته لمن تناوله بالبحث.

3/ إن هناك خلطا غير مقصود في الغالب بين علم الحرف - في السيميائية الصوفية - وعلوم السحر والطلسمات بسبب علاقة الحرف بالأسماء والأفلاك والساعات.

4/ إن ذاتية بعض الباحثين تدفعهم إلى تجنب الخوض في علم الحرف كمظهر لسيميائية التصوف الإسلامي مخافة المحذور الذي ذكرته في الاعتبار الثالث.

إذا أردنا التدقيق في أوائل من تنبه لأهمية الحرف وسره وما يحمله من حقائق ورموز، فلاشك أن الحلاج يعدُّ سابقا على كثيرا ممن سنتكلم عنهم، فنحن إذا تأملنا طواسينه فإننا سنجد أن طاسين الدائرة يدخل في هذا الباب، حيث إنه أشار إلى حرف الباء المكرر ثلاث مرات في رسمه :

ثم علق عليه بقوله : « الباء باب ثانٍ في الدائرة مثل ((ب))، وهو ذلك الباب، حيث الوصول، وفيه التيه، والثالث مفاوز الحقيقة، وهي حقيقة ذلك الباب، الذي كالباء، ويقابله بابان تحت الدائرة الثانية، وهيهات من يدخل الدائرة والطريق مسدود والطالب مردود، ونقطة الفوقاني همته، ونقطة

([1])- ينظر: محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط01، 2006، ص 149.

التحتاني رجوعه إلى أصله، ونقطة الوسطاني تحيره » [1] فالملاحظ في هذا الكلام / الشطح للحلاج يدرك أنه قد أشار في هذا الطاسين لسر فُتِح عليه به ذوقا وكشفا خاص بالباء ونقطتها، بل إنه يمكن أن يعدَّ إرهاصا لما يسمى بالوفق، الذي سنشير إليه لاحقا.

بالإضافة إلى الحلاج لاشك أننا نلمح إشارات مقتضبة هنا وهناك في كتب طبقات الصوفية وتراجمهم، بل حتى في بعض المؤلفات، لكنها لا تعدو أن تكون في أحسن أحوالها إرهاصات لظهور هذا العلم عند المحققين والمؤسسين للعرفان الصوفي، وعلى رأس أولئك نجد عبد العزيز الدبّاغ الذي تتبع جميع الحروف وردها إلى أصولها النورانية السبعة المذكورة، وراح يفصل خصائصها وطبائعها ودلالاتها، بما لا مزيد عليه، وهو في هذا لم يجنح لطريقة السحرة والسيميائيين، بل كل ما أتى به من تأويل هو ذوقه وكشفه وفتحه الذي فتحه الله له، وهو قد نبه إلى أن هذا الكلام عن الحرف يخص الحرف القرآني دون غيره، فيقول : « هذا التقسيم للحروف خاص بحروف القرآن لا يثبت لغيرها من الحروف، فليست كل همزة للقبض، ولا كمل باء للسكينة، ولا كل تاء لكمال الحواس الظاهرة، ولا كل جيم للصبر، ولا كل حاء للرحمة، ولا كل خاء لذوق الأنوار، بل بشرط وجودها في القرآن العزيز » [2]

وفي هذا السياق لا يمكن أن نغفل ونحن نتكلم عن الدراسات التي تطرق أصحابها عن الرمزية الحرفية في العصر الحديث دون الإشارة إلى المستشرقة آنا ماري شيمل، التي جعلت في الملحق الأول من كتابها ((الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف)) كلاما عن رمزية الحروف في المصادر الصوفية، حيث الرمزية الحرفية من الأهمية بمكان لدراسة الصور واللغة الرمزية في التصوف، ولكن الغالب عن كلامها هو عن العرفان الفارسي وشعرائه كالعطار وجلال الدين الرومي والجامي.

حقيقة مفهوم الحرف في الفكر الصوفي :

إننا إذا أردنا توصيف علم الحروف عند الصوفية، فلا نجد أقرب من قولنا عنه: إنه سر الأولياء وحقيقة العرفاء، وهذا لأن في البدء كان الحرف، وهم في البدء كانوا، فهو الذي به ظهرت أعيان الموجودات، فهي لم تظهر إلا بـ ((كن))، يقول ابن عربي : « كانت الأعيان مستعدة في ذواتها، في حال عدمها، لقبول الأمر الإلهي، إذا ورد عليها بالوجود، فلما أراد بها الوجود قال لها : ((كُنْ)) فتكونت وظهرت في أعيانها، فكان الكلام الإلهي أول شيء أدركته (الأعيان) من الله تعالى » [3]

([1]) - الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، جمع : قاسم محمد عباس، دار رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2002، ص 175.

([2]) - أحمد بن المبارك، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدّباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط3، 2002، ص111.

([3]) - محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 89 - 90.

لقد عقد السراج الطوسي بابا فيما قيل في فهم الحروف والأسماء، فنقل عن أحد العرفاء قوله : « إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم : ما عبر عنه وما أشير إليه؛ مستنبط من حرفين من أول كتاب الله تعالى، وهو قوله : ((بسم الله، والحمد لله))، لان معناها بالله ولله » [1]

إن العرفانية الصوفية تنطلق في رؤيتها للحرف كمكون بنيوي للكلمات على أنه مما علمه الله آدم كما جاء في القرآن الكريم؛ وكل حرف له من الأسرار والنكت واللطائف ما يختلف عن حرف آخر، ولكن هذه الحروف تتكاتف جميعا لتدلَّ على حقيقة واحدة هي الحق تعالى، معنى هذا الكلام أن الحرف سبيل للحرف يعطيه ويأخذ منه، ما دام يخرج من مشكاة روحانية واحدة، ولعلَّ هذه اللفتة هي التي أشار إليها النفري في قوله : « إذا أرسلتك إلى الحروف فلتقتبس حرفا من حرف، كما تقتبس نارا من نار، أقول لك أخرج ألفا من باء، أخرج باء من باء، أخرج ألف من ألف » [2]، فهذا التناسل والتوالد هو من قبيل القرابة والوراثة بين الحروف، فهي وإن كانت تتفاضل رمزيا وعرفانيا، إلا أنها تشترك في الدلالة على موجدها ومنطقها وبارئها، فهي سره المتجلي في الكلمات الأسمائية والكونية.

ينقل ابن خلدون عن بعض محققي علماء التصوف المشتغلين بعلم أسرار الحروف قوله : « اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم » [3] لاشك أننا - من خلال القول السابق - إزاء عالم مليء بالأسرار فمن وُفِّق لمعرفته والتمكن منه، فله القدرة على الإجابة عن كل ما يطرأ له من أسئلة وخفايا، فهو على رأي قول أحد الباحثين « هو علم ميزان حقائق الوجود، الذي يمكن من العثور على مفاتيح كل المعارف من خلال فحص العناصر المكونة للكلمات وحروفها » [4]

إن السؤال المطروح هنا هل علم أسرار الحروف بما هو عليه هو مما يُتَعَلَّمُ كغيره من العلوم والصناعات، أو هو منحة ربانية يؤتاها العبد إذا وصل إلى مراتب الأولياء، بحيث يكون في حقه كرامة؛ لأنه قائم أساسا على الكشف والذوق، وينقل ابن خلدون في هذا الصدد عن البوني قوله في هذا الصدد : « ولا تظنّ أنّ سرّ الحروف ممّا يتوصّل إليه بالقياس العقليّ، وإنّما هو بطريق

([1])- أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور ،دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، ص 124.

([2]) - محمد بن عبد الجبار النفّري، المواقف ويليه المخاطبات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1997، ص 307.

([3]) - ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، دار الكتاب العربي ،بيروت، لبنان، ط03، 1967، ص 304.

([4]) - عبد الباقي مفتاح، بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2011، ص 34.

المشاهدة والتوفيق الإلهيّ »[1] أو أنهما ضروريان كلاهما (الوهب والكسب) حتى يصل المشتغل به إلى درجة العارف الذي « يرفع له حجاب المجهولات ويطلع بذلك على مكنون خبايا القلوب »[2] ولعل أقرب ما يمكن أن يقال جمعا بين الرأيين أن علم أسرار الحروف هو ملكة وموهبة ومنحة أولا ثم هو دربة وصقل وتعلم ثانيا، خاصة وأن الشواهد التاريخية قد جاءت متكاثرة عن الثقات في هذا الشأن، ولهذا تصبح الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا تتبع واستقراء ما جاء عن المشتغلين به، وكيف هو حالهم معه قبل معرفته وبعده، ولكن الأمر أصعب من هذا لأن مثل هذه الحالة يمكن أن تشتبه بغيرها من العلوم الروحانية كالسحر مثلا، الذي هو حقٌّ وقوعه باتفاق المحققين وإن كنا لا نستطيع معرفة الملهم إليها من البشر ممن صنيعه وقوله من نزغات الشياطين، بخلاف من تعلمه كباقي العلوم والحرف والصناعات.

إن تعامل الناس مع روحانية الحرف وسره ترجع بهم إلى إحدى هذه الطوائف، فإما أن يكون من أصحاب الطلاسم (السحر والشعوذة)، وهؤلاء يتعاملون مع الحرف تعاملا معقدا؛ حيث يتفاعل مع أسرار حركات الأفلاك ومجاميع الأعداد ونسبها، بالإضافة لبعض البخورات الجالبة للقوى الروحانية العلوية، وهم في هذا يسعون لربط الطبائع العلوية بالطبائع السفلية، أو قل ربط الروح بالجسد، وهذا النوع استغلَّ أصحابه قوة الحرف وسره في أغراض شيطانية، فأولى الجهل به، ولهذا قال النفري في هذا المعنى : « يا عبد اخرج من بين الحروف تنجُ من السحر »[3]

وإما أن يكون من أصحاب التصرف في الأسماء من المتصوفة والعرفاء، وهؤلاء يتعاملون مع الحرف بوصفه سرا إلهيا يدركون حقيقته بالمجاهدة والكشف كرامة وتأييدا، ومن خلال هذه المعرفة / الكرامة يستطيعون تسخير عالم الطبيعة لما يريدونه، فتحصل لهم بذلك خوارق العادات المخالفة لنواميس الكون، والفرق بينهم وبين أصحاب الطلاسم أنهم لا يحتاجون لأي استعانة من القوى الفلكية (وإن كانوا يعتقدون أن للأفلاك أرواحا ملائكية تقوم عليه) و لا النسب العددية ولا البخورات، لأن مددهم أعظم من كل هذا، ولكن مع هذا يجب معاملة الحرف معاملة الواسطة لمعرفة الرب مثله مثل العلم، فإذا كان مقصود الإنسان الحرف أو العلم دون خالقهما فقد تنكب الطريق السليم ونكص على عقبيه، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه النفري بقوله : ((يا عبد الحرف حرفي والعلم علمي وأنت عبدي لا عبد حرفي ولا عبد علمي، فقف بين يديَّ لا بين يدي حرفي، وقف بين يدي لا بين يدي علمي، إن حرفي يقوم بين يدي كما تقوم، وإن علمي يقوم بين

([1]) - ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 283.

([2]) - المرجع نفسه، ج02، ص 304.

([3]) - محمد بن عبد الجبار النفّري، المواقف ويليه المخاطبات، مصدر سبق ذكره، ص 167.

يدي كما تقوم)) [1] لأنه يعلم أن من الناس من لا يفرق بين المقاصد والغايات وبين الوسائل، فيذهب للوسيلة (البداية) ذهاب العارف للغاية (النهاية).

وإما أن يكون من أهل السيميا الذين هم بين هؤلاء وهؤلاء، فهم عندهم مناسبات بين الأسماء وطبائع الحروف والأعداد، ولكن ليس لهم كشف ولا ذوق ولا مدد رباني يمكنهم من معرفة أسرار الله الخفية. ولكن مع هذا يمكن أن يختلط الأمر على أفراد الناس فيغدو عمل المتصوف سحرا وطلسما، ويغدو عمل السيميائي تصوفا وعرفانا، ويرجع هذا للتشابه الكبير في الوسائل وإن اختلفت المقاصد، كما حدث للبوني على سبيل المثال، فإنه وإن كان من يحسبه من العرفاء (ذكره النبهاني في جامع كرامات الأولياء)، إلا أن اشتغاله على الحرف جنح به إلى السحر والطلسم كما في شمس المعارف الكبرى والأنماط، والأمر نفسه مع مسلمة المجريطي في كتابه الغاية، وكذا الكتاب المنسوب للغزالي الطب الروحاني للجسم الإنساني في علم الحرف و الكتاب المنسوب للسيوطي الرحمة في الطب والحكمة[2]

وهذا الأمر واسع وقد جعل ابن خلدون في مقدمته أكثر من فصل عن أسرار الحروف وطبائعها وقواها وكيفية كشف المجهول الغائب من خلالها كما في فصل : ((الاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية))، حيث نقل عن المشتغلين بهذا الحقل الروحاني صفحات كثيرة تعدُّ مقدمات لمعرفة أصل هذا العلم.

وجماع ما قلناه عند المحققين من المتصوفة والفقهاء من غيرهم هو منع الاشتغال بمثل هذا درءا للمفسدة وسدًّا لذريعة الشرك والسحر، يقول ابن عربي في هذا الصدد - وهو العارف بكل خبايا هذا العلم ومتعلقاته - « فالأولى ترك طلبه، فإنه من العلم الذي اختصَّ الله به أولياءه على الجملة، وإن كان عند بعض الناس منه قليل، ولكن من غير الطريق الذي يناله الصالحون، ولهذا يشقى به من هو عنده ولا يسعد » [3].

لابد بداية أن نشير إلا أن مجموع ما تكلم به العرفاء والمتصوفة عن الحرف، فهو لا يخرج عن كونه كلاما عن الحرف مفردا من حيث حقيقة ظاهره وباطنه ومركبا من حيث دلالته على معنى الكلمة من حيث حقيقة الحروف المكونة لها ظاهرا وباطنا [4]، ومن حيث دلالة الكلمة بمجموع

([1]) - المرجع نفسه، ص 168.

([2]) - ينظر للاستزادة : ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 283-286.

([3])- الفتوحات المكية، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 208.

([4])- لابد من الإشارة هنا إلى أنَّه إذا كانت ثنائية الظاهر والباطن - المنسجمة من ثنائيات أخرى لها بعد صوفي كالشريعة والحقيقة والحضور والغياب - لها تعلق بالكلمة والجملة بوصفهما خطابا، فإنها قد اتخذت الاعتبار نفسه مع الحرف، فإن له ظاهر وباطن، ظاهر يعلمه أصحاب الرسم، وباطن يعرفه أرباب الكشف.

حقيقة حروفها ظاهرا وباطنا كذلك، ويلحق بذكر الحرف لوازم له كالنقاط والحركات واللين... بل وحتى الأعداد والأشكال والخطوط وغيرها، وكل هذا وغيره عند القوم له معنى وله سرٌّ، فلا تظنن أن كل حرف أو حروف أو ما يتعلق بهما عند الصوفية يأتي دون قصدية عرفانية حَقِّيَّةٍ من ورائه والتي تنتهي جميعها في النهاية لإثبات ربوبية ووحدانية الحق، وهذا ما أشار إليه النفري بقوله : ((يا عبد الحرف لغات وتصريف وتفرقة وتأليف وموصول ومقطوع ومبهم ومعجم وأشكال وهيئات والذي أظهر الحرف في لغة هو الذي صرَّفه، والذي صرَّفه هو الذي فرَّقه، والذي فرَّقه هو الذي ألَّفه، والذي ألَّفه هو الذي واصل فيه، والذي واصل فيه هو الذي قطَّعه، والذي قطَّعه هو الذي أبهمه، والذي أبهمه هو الذي أعجمه، والذي أعجمه هو الذي أشكله، والذي أشكله هو هيَّأه، ذلك المعنى هو معنى واحد، ذلك المعنى هو نور واحد، ذلك الواحد هو الأحد الواحد)) [1]

لاشك أن أهمية الحرف أكثر ما تظهر في الطرح الصوفي باعتبار وجوده في القرآن الكريم؛ الذي هو كلام الله، وهذه الأهمية تتجلى أكثر في أنهم نظروا إليه لا باعتبار رسمه الدال على المراد المفهوم منه ظاهرا، بل إنه الحامل للحقائق والأسرار واللطائف التي تجل على فهم الناقصين من البشر وفي هذا يقول أبو سعيد : « كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر؛ إذا سمعت بقوله : ((الم ذلك)) فللألف علم يظهر في الفهم غير ما يظهر اللام » [2] وسبيل إدراك ذلك الفهم هو « على قدر المحبة وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت في الفهم » [3]

إن النص القرآني هو المصدر الأول للعرفان الصوفي فيما يخص الحديث عن بواطن الحرف أو قل روحانيته، ونحن إذ نتكلم عن هذا المبحث الصوفي الخاص بالرمزية الحرفية، لا يهمنا ظاهر الحرف من حيث إحصاء أقسامه وأكثرها ورودا أو نزول القرآن على سبعة منه، والخلاف في معناه عند أهل الاختصاص، وإعرابه وبناؤه ... فكل هذا مع أن له من الأهمية الشيء الكثير، كيف لا ؟ وهو كلام الله المعجز في كلِّيته، لكن

(1)- محمد بن عبد الجبار النفّري، مصدر سبق ذكره، ص 178.
(2) - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، مرجع سبق ذكره، ص 125.
(3) - الصفحة نفسها.

الطرح الصوفي يتجاوز ظواهره المفهومة إلى بواطنه الخفية [1] ، وهي ترجع على حسب طبيعة كل حرف وارتباطه بالأحرف السبعة النورانية (الآدمية والقبض والبسط والنبوة والروح والعلم والرسالة)، التي بها نزل القرآن على تفسير بعض العارفين إلى التصنيف الآتي[2]:

الحرف	طبيعته العرفانية	ارتباطه بالأحرف السبعة
الألف (الهمزة)	الامتثال	القبض
الباء	السكينة	الرسالة
التاء	كمال الحواس الظاهرة	الآدمية
الثاء	الإنصاف	القبض
الجيم	الصبر	النبوة
الحاء	الرحمة الكاملة	النبوة
الخاء	ذوق الأنوار	الروح
الدال	الطهارة	الروح
الذال	معرفة اللغات	العلم
الراء	حسن التجاوز	البسط
الزاي	الصدق مع كل أحد	الرسالة
الطاء	التمييز	الروح
الظاء	نزغ حظ الشيطان	الآدمية

([1])- إن الصوفية كما يثبتون أفضلية الباطن على الظاهر، فهم يرون أهمية الظاهر في إكمال الباطن، يقول أحمد بن المبارك : « إن علم الباطن بمثابة من كتب تسعة وتسعين سطرا بالذهب، وعلم الظاهر بمثابة من كتب السطر المكمل المائة بالمداد، ومع ذلك فإذا لم يكن ذلك السطر الأسود مع سطور الذهب المذكورة لم تفد شيئا وقلَّ أن يسلم صاحبها » وهذا الأمر ينسكب على الحرف (ظاهرا وباطنا) الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدّباغ، مرجع سبق ذكره، ص 230.

([2]) - ينظر: المرجع نفسه، ص 79 – 110

الكاف	معرفة الله تعالى	النبوة
اللام	العالم الكاملة	الرسالة
الميم	الذكورية	الآدمية
النون	الفرح الكامل	البسط
الصاد	العقل الكامل	الآدمية
الضاد	قول الحق	النبوة
العين	العفو	النبوة
الغين	كمال الصورة الظاهرة	الآدمية
الفاء	الحمل للعلوم	العلم
القاف	البصيرة	الروح
السين	خفض جناح الذل	البسط
الشين	القوة الكاملة من الانكماش	القبض
الهاء	النفرة عن الضد	القبض
الواو	يموت وهو حي	الرسالة
ألف لام	عدم الغفلة	الروح
الياء	الخوف التام من الله تعالى	النبوة

إن مجرد الكلام عن السر الإلهي المودع في الحرف القرآني يجعلنا ملزمين حصرًا أن نشير إلى القيمة الرمزية والعرفانية المطلقة للحرف بوصفه بنية تركيبية للأسماء أو قل للكلمات - كما جاء في القرآن الكريم – بدليل قوله تعالى : ((وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) [لقمان : 27]، إن هذه الآية تحيلنا رأسا إلى لا نهائية كلمات الله وكمالها واتساعها غير المحدود، وفي المقابل لا نهائية ولا محدودية الأسرار المتعلقة بها والمستبطنة فيها، لأنها كلام الله.

وفي هذا المقام لابد من الإشارة إلى أنَّ ابن عربي قد خصَّ سر الحرف القرآني بكتاب لا أظنه مطبوعا، بل ولا موجودا أصلا، وهو كتاب ((الجمع والتفصيل في معرفة معاني التنزيل))، والذي تناول فيه جميع ما يخص مباحث الحرف في القرآن الكريم، وفي الدرجة الأولى الأحرف المقطعة- كما أشار إلى ذلك في فتوحاته – فقال في حقها : « هذا أوان الكلام على هذه الحروف المجهولة المختصة : على عدد حروفها بالتكرار ، وعلى غير حروفها بغير التكرار ، وعلى جملتها في السور، وإلى إفرادها في ((ص)) و((ق)) و ((ن))، وتثنيتها في ((طس)) و((طه)) وأخواتها، وجمعها في ثلاثة فصاعدا حتى بلغت خمسة حروف؛ متصلة ومنفصلة، ولن تبلغ أكثر، ولم وُصِل بعضها وقطع بعضها؟ ولم كانت السُّوَر بالسين ولم تكن بالصَّاد؟ ولم جهل معنى هذه الحروف عند علماء الظاهر، وعند كشف أهل الأحوال؟ » [1]

لقد اختلف الصوفية - بعدما اتفقوا على قابلية الحروف للتأثير والفعل - هل الحرف يؤثر لوحده أم يجب أن يكون مركبا مع غيره، عندما يخرج من كونه ملفوظا أو مرقوما إلى كونه مستحضرا، فمنهم من رأى للحرف قدرة على التأثير لوحده؛ لأن كل حرف له خاصية وطبعا وسرًّا في نفسه، ومنهم من منع ذلك، ورأى أن الحرف لا سلطان له إلا في انتظامه مع أحرف أخرى، ولعل ابن عربي قد حسم الخلاف عندما رأى أن إطلاق الحكم من الطرفين هكذا خاطئ وصائب في الوقت نفسه، لأنه يحتاج إلى تفصيل، وإن كان يميل عموما إلى القول بأن الحرف إنما يعمل مع غيره من الحروف لا وحده، يقول في هذا : « ومن هنا منع من منع أن يعمل الحرف الواحد، فإنه رأى (الضمير يرجع إلى الحكيم الترمذي)، مع الاقتدار الإلهي، لم يأت في الإيجاد حرف واحد وإنما أتى بثلاثة أحرف : حرف غيبي وحرفين ظاهرين، إذا كان الكائن واحدا، فإن زاد على واحد، ظهرت ثلاثة أحرف » [2]، وتجب الإشارة هنا إلى أنَّ أقوى الحروف وأكثرها أثرا لا يكون لها ذلك إلا « إذا اسْتَحْكَمَ سلطان ((استحضارها))، واتحد المستحضِرُ لها، ولم يبق فيه مُتَّسَعٌ لغيرها، ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك » [3]

إن سرَّ تأويل الحرف في العرفان الصوفي يكمن في أنه خاضع مثله مثل أي مفهوم أو مصطلح صوفي لسلطة الذوق والكشف، ولهذا تأويله هو بعدد أنفاس من أوَّلوه، فلو نظرنا على سبيل المثال للنفري كعينة تطرقت للحرف عموما لا لكل حرف على حدة، وأردنا أن نتعرف على حقيقة نظرته له، فإننا دون شك، سنرجع منه، كما يقول المثل العربي ((بِخُفَيَّ حُنَيْنٍ)) لسبب بسيط أن مجمل ما كتبه في مواقفه ومخاطباته يبعث على الدهشة والحيرة، فالحرف عنده ألوان شتى، يأخذ في كل موقف أو مخاطبة معنى يختلف عن غيره، بل إنه في المخاطبة نفسها يأخذ المعنى ونقيضه، فمثلا

([1])- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 266.

([2])- المصدر نفسه، ج03، ص204.

([3])- المصدر السابق، ج03،ص 207.

نراه يقول في المخاطبة (17) : ((يا عبد أنا أقرب من الحرف وإن نطق، وأنا أبعد من الحرف وإن صمت)) [1]، فهنا الحرف عنده له وظيفتان يمكن أن يكون ناطقا أو صامتا، ولك أن تبحث عن صمته إذا فهمت نطقه أو عن نطقه إذا فهمت صمته، وعلاقة ذلك بالبعد والقرب الإلهيين، وهذه المخاطبة مع أخواتها هي من أوضح ما قال، فلو ذهبت لغيرها وأردت تفحصها، فإنك إن لم يكن لك ذوق كذوق صاحب القول، فستخبط خبط عشواء، ولن تصل لمقصود صاحبه حتى يلج الجمل في سم الخياط، ولكي أبرهن لك عن صدق حكمي، لك أن تقرأ هاتين المخاطبتين، ثم تقول لي ما فهمته منهما يقول : ((أنا عبد رب الحرف والمحروف فما لهما مني مجال، وأنا مرقب الحرف والمحروف فما لهما عن جعلي مدار)) [2]، ((يا عبد للحرف حكم أنا مودعه، وللمحروف حكم أنا واضعه، فلا تذهب بالحكم المودَع عن الحكم المودِع، فإليه يرجع ما أودع، وبه ينفد ما حكم)) [3]

لقد أدرك محمد بن عبد الجبار النفري رمزية الحرف في الطرح الصوفي / العرفاني، حيث خصص جزءا لا بأس به في مواقفه ومخاطباته، فتكلم في عديد المحطات عن سر الحرف كما تجلى له، بما يمكن أن يعتبر نظرية متكاملة، تحتاج من يشرحها ومن يحلل مقولاتها، حيث إننا لا نجانب الصواب إذا قلنا : إن النفري (اختلف في تاريخ ميلاده ووفاته، إلا أن المتفق عليه أنه عاش في القرن الرابع الهجري) قد سبق غيره في هذا، فمن من جاء بعده هو عالة عليه.

لابد بداية من التنبيه إلا أن جميع مواقف ومخاطبات النفري هي داخلة ضمن العرفانية الصوفية، والتي تحمل مستويات رمزية متعددة لها علاقة بمسمى الإشارة بوصفها « ما يخفى عن المتكلّم كشفه بالعبارة للطافة معناه » [4]، أو هي كما يرى ابن قيم الجوزية « المعاني التي تشير إلى الحقيقة من بعد، ومن وراء حجاب، وهي تارة تكون من مسموع، وتارة تكون من مرئي، وتارة تكون من معقول، وقد تكون من الحواس كلها » [5] فهي بهذا المعنى تتوسط منطقة برزخية جامعة، فهي من جهة تنأى عن التصريح والانكشاف لاتساع الرؤية وعدم قدرة اللغة على التعبير عنها، ومن جهة ثانية؛ هي قائمة على معان تشير إلى حقائق محجوبة تتوزع بين مسموع ومرئي ومعقول ويمكن أن تشملها جميعا، فهي ممكنة الفهم والإدراك شأنها شأن الأدلة لأنها من جنسها، ولكنها لا تتكشف بطبعها إلا لمن فتحت لهم من الله ﷻ أبواب المعرفة والأسرار، يقول ابن القيم عن

([1])- محمد بن عبد الجبار النفّري، المواقف ويليه المخاطبات، مصدر سبق ذكره، ص 167.

([2])- المصدر نفسه، ص 168.

([3]) - الصفحة نفسها.

([4])- أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، مرجع سبق ذكره، ص414.

([5])- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد ونستعين،ج02،تح : محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط03، 1996، ص389.

أصحابه: « يسمّون أخبارهم عن المعارف وعن المطلوب إشارات، لأن المعروف أجلُّ من أن يُفصح عنه بعبارة مطابقة، وشأنه فوق ذلك، فالكامل من إشارته إلى الغاية، ولا يكون ذلك إلا لمن فني عن رسمه وهواه وحظه، وبقي بربه ومراده الديني الأمري، وكل أحد إشارته بحسب معرفته وهمّته » [1]

وله علاقة كذلك بمسمى الشطح بوصف هذا الأخير :« عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوّته وهاج بشدّة غليانه وغلبته، وبيان ذلك : أن الشطح في لغة العرب، هو الحركة، يقال شطح يشطح إذا تحرّك » [2]

إن مفهوم الشطح على حسب كلام الطوسي نوع من الكلام المشكل المستغرب في ذاته، يخالف صريحُ ظاهره باطنَه مأخوذٌ من الحركة « لأنها حركة أسرار الواجدين، إذا قوي وجدهم؛ فعبّروا عن وجدهم ذلك، بعبارة يستغربها سامعُها » [3]، هذا وقد راح الطوسي يقارب ما بين المعنى اللغوي للشطح وما يدلّ عليه في الاصطلاح عندهم، فكما أن النهر إذا ضاق بمائه فاض من حافتيه فكذلك « المريد الواجد : إذا قوى وجده، ولم يطق حمل ما يرد على قلبه من سطوة أنوار حقائقه سطع ذلك على لسانه، فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهوم سامعيها، إلاّ من كان من أهلها، ويكون متبحرا في علمي علمها » [4] .

إن محاولة مقاربة مفهوم الشطح بآليات لغوية مجرّدة تأخذ بصاحبها إلى غير ما يفهم منها عند أصحابها، ولاشك أن خفاء المعنى واستغلاقه وتواريه خلف الحجب، يحول دون إدراك القارئ لمعناها، يطرح تساؤلا حول تحقق عجز اللغة في بعض صورها عن تفسير وتفهّم مآلات خطابٍ يحمل في باطنه معنى، لكنه معنى ينأى عن التحديد؛ لاتساع رؤية صاحبه إلى حدّ لا يمكن فهمه إلا من كان من أهله ومتبحرا في علمه كما يقول الطوسي.

مما سبق يمكننا وصف الشطح بأنّه بديل خطابي متعال« ذو معنى مزدوج ، يتميّز بالالتباس، الذي يشكل جوهريته، دون أن يخرج عن السياق الصوفي في تعامله، مع كونه تمظهرا لما تتحسَّسُهُ النفس عند وصولها إلى حضرة الألوهية » [5] يصدر عمّن عاش تجربة روحية خاصة، لم يستطع أن يعبَّر عن اتساع رؤيته، فضاقت عبارته [6]، وعجزت لغته، بما يفهم منه أن الشطح عملية إرباك

([1])- المرجع نفسه، ج02، ص452.

([2])- اللمع، مرجع سبق ذكره، ص453.

([3])- الصفحة نفسها.

([4]) - المرجع نفسه، ص 454

([5]) - أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، ويليها كتاب تأويل الشطح، تح : قاسم محمد عباس، دار الندى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا ، ط01، 2004، ص19.

([6])- هذا تضمين للمقولة الشهيرة للنفري: « **وقال لي: كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة** » المواقف ويليه المخاطبات، مصدر سبق ذكره، ص 51.

حقيقية لمنطق اللغة، بلغة منطق جديد، يكاد يتجاوز حدود الرمز والإشارة، وإن كان في بعض وجوهه ثمرة لهما، هذا وقد اجتهدت **آنا ماري شيمل (Anna marie Schimmel)** في تحديد الغايات والأهداف المحتملة لشطحات الصوفية، حيث رأت أنها إنّما تأتي لـ« إدهاش السامع، أو لفتح باب الحوار، أو لإرباك الفكر المنطقي، بحيث ينجلي في أذهان السامعين التصور اللاّمنطقي للمعنى الحقيقي لتعبير ما، أو لحالةٍ صوفيةٍ معينةٍ » [1] .

إن الدوافع السابقة، يمكن إيجاد مبررات مقبولة لها من خلال علاقتها بطبيعة الشطح كنسق كلامي غير معهود؛ فإدهاش السامع، يرجع في أعقد صوره إلى قابليته لمعنى المفارقة، وذلك من حيث المزاوجة بين المتناقضات، المتجاوز لإدراكات العقل المجرّد، ولهذا السبب كان الخطاب الشطحي محل انتقاد وهجوم لاذع من خصوم العرفان الإسلامي جملة، لأن المعروف في ضرورات مبادئ الحوار، أن من جهل شيئا عاداه، أما فتحُ باب الحوار وتقبّل ما يأتي به الآخر؛ فلا يمكن فهمه، إلا من خلال استحضار أطراف حوار على مستوى مشترك من قابلية استيعاب الشطح على المستوى التداولي والفكري، وإلا فالحوار بين معترف بجدواه ومشروعيته، وبين معادٍ، بل ومكفّر لأصحابه، هو من باب الحوار المتحقق الفشل في بدايته؛ لاختلاف المنطلقات، وتباين المرجعيات بين كلا الطرفين، لأن الأول له محددات منهجية تمكّنه من تقبل مبدأ الحوار رأسا، مع من تصدر عنه هذه الشطحيات، فهو متلقٍ منفتحٌ له آفاق متسعة غير محدودة لقبول رأي الآخر، بخلاف الثاني : تحكمه الآراء المسبقة، التي لا تدع مجالا للحوار، أما إرباك الفكر المنطقي؛ فهو في الحقيقة أصل طبيعة الشطح، لأنه خلاف تصورات العقل المجرّد للمعنى، الذي يصبح في الشطح منفتحا على نقيضه (اللاّمعنى)، لأنّه « يتجاوز المقومات والمفاهيم اللغوية المتعارف عليها، باعتباره خطابا بدون متكلم تقريبا » [2]،ولعل معنى نفي إسناد التكلّم عن صاحب الشطح، مع ما يمكن أن يفهم منه بوصفه حالة مرضية؛ لها علاقة بالانفصام في الشخصية أو ازدواجيتها، إلا أنها في مقام الشطح تنأى عن التخريجات النفسية، حيث إنها تأخذ في الخطاب الصوفي صورة تختلف كلية عن الخطابات المأدلجة الأخرى؛ إذ المتكلم الصوفي الشاطح، ينطلق من لا وعي عميق، لا يتمكن صاحبه من خلاله استيعاب مقولِهِ بصورة منطقية وواضحة؛ لأنّ حالة الوجد ومبلغ السكر، قد حَجَزَاهُ عن تبليغ رسالة مفهومة المعالم إلى غيره، كأن حركة خطابه تقوم على قوانين داخلية منه تبدأ، وإليه تعود، فهو المخاطَب والمخاطِب في الآن نفسه.

([1])- الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل السيد، منشورات الجمل، بغداد، العراق، ط01، 2006، ص18.

([2])- محمد العدلوني الإدريسي، التصوف الأندلسي(أسسه النظرية وأهم مدارسه)، دار الثقافة ، الدار البيضاء، المغرب ، ط01، 2005، ص121.

ما سبق يمكن إيجاد نقاط اشتراك دلالي بين الرمزية الحرفية والإشارة والشطح بوصفهم في المتداول الصوفي يستبطنون معنى خفيًا [1] ؛ يتمّ إنتاجه في حالات سلوكية خاصة.

وبهذا يغدو السعي وراء محاولة قراءة ما جاء به النفري عن الحرف والحروف والمحروف كما يحلو له تسميته هو نوع من الاجتهاد والقراءة المحتملة لا أكثر ولا أقل، لأن أكثر عباراته في هذا الشأن لا تكاد تخرج من مسمى العبارة إلى مسمى الإشارة والشطح- الذي أشرنا إليه - ولكي نوضح الأمر لابد من التمثيل ببعض هذه العبارات المشكلة، التي ظاهرها مستشنع ومبهم، وباطنها صحيح ومستقيم على الأقل على حسب مقاصد المتكلم به، يقول في إحدى مخاطباته :

((يا عبد الحرف خزانتي، فمن دخلها فقد حمل أمانتي))

ويقول كذلك : ((يا عبد، الحرف ناري... الحرف خزانة سري))

إن المتأمل لنصَّيْ النِّفري السَّابقين يجد أنه أمام أمر ذي شأن عظيم، كيف لا؟ وهو خزانة الحق - كما في النص الأول - وهو ناره وخزانة سره – كما في النص الثاني، السؤال الذي يطرح هنا باستصحاب ما سبق الكلام عنه حول الإشارة والشطح، ما الذي جعل الحرف يتسنم هذه المكانة المرموقة، وكيف له أن يكون ما هو عليه حسب قول النفري، ثم كيف يكون الحرف نار وخزانة السر للحق جل وعلا؟

لاشك أن الإجابة عن هذه التساؤلات ستصطدم بنصوص أخرى مفارقة للنفري نفسه تفرغ الحرف من محتواه القدسي السابق، بحيث تسلبه كل أهمية، من ذلك قوله : ((وقال لي : الحرف يعجز عن أن يخبر عن نفسه، فكيف يخبر عني؟))، بل هو في نص آخر يجعله مساويا للسِّوى؛ وهو كل ما عدا الله، وما عدا الله باطل كما هو معروف، بل هو حجاب عن الله تعالى يحول دون معرفة الله والوصول إليه، وهذا ما تسميه آنا ماري شيمل بـ ((حجاب المغايرة)) [2] وهذا نفسه ما صرح به في نص سابق عندما قال : ((وقال لي : الحرف حجاب، وكلية الحرف حجاب، وفرعية الحرف حجاب، وقال لي: لا يعرفني الحرف، ولا ما في الحرف، ولا ما من الحرف، ولا ما يدل عليه الحرف))، ويقول في عبارة أخرى : ((وقال لي : أصحاب الحروف محجوبون عن الكشوف))، بل يزداد الأمر غرابة في نص آخر عندما جعل من الحرف دنسا من الشيطان، فقال : ((وقال لي : الحرف فج إبليس))، ولهذا أصبح من الواجب الخروج والابتعاد حصرا عن الحرف ومن الحرف وما في الحرف، كيما يكون الإنسان من أهل الله، يقول النفري مقررا هذا : ((الخارجون عن الحرف هم

([1])- للصوفية مصطلح موازي للمعنى الخفي وهو السِّمسمة، التي هي عندهم « معرفة تدقّ عن العبارة والبيان » الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح، محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، 2004، ص105.

([2]) - الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ،مرجع سبق ذكره، ص 469.

أهل الحضرة، الخارجون عن أنفسهم هم الخارجون عن الحرف))، ويقول أيضا : ((وقال لي : لا تقف في رؤيتي حتى تخرج من الحرف والمحروف)).

إن مسايرة النفري النصية (المباشرة) في مواقفه ومخاطباته عن الحرف في محتواه السلبي / المدنس، تجعل من القول برمزية الحرف وعرفانيته نوعا من العبث والتقول وادعاء ما ليس له، ولكن في المقابل يمكن أن نجد تخريجا آخر لدلالات العبارات السابقة، يصبح الحرف بمقتضاها سرا وطلسما وبرزخا جامعا بين الوجود والعدم والحضور والغياب، أو قل هو المعنى الخفي الذي يدل على كل شيء ولا يدل على أي شيء، يقول يوسف زيدان : « كل نوع من أنواع هذه الحروف، ظروف لسرٍّ إلهي، أي مظهر لظهور كمالي أودعه الله بتجليه عليه، حين خلقه من المحتدَّ المقتضى لذلك، بحكم ما لذلك المحتدِّ من معنى الجمال أو الجلال أو الجمع أو الكمال » [1] وهذا ما سنجده مجسدا في فكر ابن عربي ونظريته عن الحرف .

وما دمنا نتكلم عن رمزية الحروف فلابد من الإشارة إلى الأبجدية (أبجد هوز حطي...)، فقد تنازع الناس فيها على عدة أقوال، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ثم عقب بقوله : « والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسميات وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم (...) ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد فيجعلون الألف واحدا والباء اثنين والجيم ثلاثة إلى الياء ثم يقولون الكاف عشرون. . . » [2]، وهذا النسق الحرفي هو الأوسع حضورا من الألفباء عند أصحاب الهندسة والمنطق والتصرف من المتصوفة والسحرة على السواء، بل عليه المعتمد في كشف طبائع الحروف وخصائصها، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في كلامه عن علم أسرار الحروف عندما قال : « وحدث هذا العلم في الملّة بعد صدر منها، وعند ظهور الغلاة من المتصوّفة وجنوحهم إلى كشف حجاب الحسّ، وظهور الخوارق على أيديهم والتّصرّفات في عالم العناصر، وتدوين الكتب والاصطلاحات، ومزاعمهم في تنزّل الوجود عن الواحد وترتيبه، وزعموا أنّ الكمال الأسمائيّ مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأنّ طبائع الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، فهي سارية في الأكوان على هذا النظام » [3] وهو علم واسع جدا لا يحاط بمسائله، وهو في الغالب قائم على الذوق، وممن أكثر القول فيه محي الدين بن عربي - كما سنرى – وأحمد بن علي البوني (صاحب شمس المعارف الكبرى) وغيرهما، وقد عرَّفه ابن خلدون بعد النص السابق بقوله : « وحاصله عندهم وثمرته تصرّف النّفوس الربّانيّة في عالم الطبيعة

([1])- يوسف زيدان، ابن عربي الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية، دار الأمين، القاهرة، مصر، ط01، 1999، ص 90 – 91.

([2]) - تقي الدين بن تيمية، مجموع الفتاوى، ج12، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1995، ص 62.

([3])- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 282.

بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهيّة الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السّارية في الأكوان » [1] والجدول الآتي يبين ما يقابل هذه الحروف من الأعداد، ما يسمى عند المشتغلين به حساب الجمَّل :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
01	02	03	04	05	06	07	08	09	10
ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
20	30	40	50	60	70	80	90	100	200
ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ		
300	400	500	600	700	800	900	1000		

إن من أهم عوامل اشتغال الصوفية على الحرف والبحث عن طبائعه وأسراره، يرجع بنسبة كبيرة لاشتغالهم التأملي والسلوكي والكشفي على الأسماء الإلهية؛ المكونة أساسا من أحرف ظاهرية وأسرار باطنية، وسعيهم الحثيث لمعرفة اسم الله الأعظم المذكور في كثير من المرويات النبوية والأخبار؛ الذي يعدُّ مفتاح الإجابة وفتح مغاليق أسرار الوجود.

لقد نقل ابن خلدون عن أهل التصوف تحديد طبيعة حروف الأبجدية في علاقتها بتصرف النفوس الربانية في الأكوان (ما يسميه عالم الطبيعة) [2]، ورأى أنها عندهم منوطة بمزاج الحرف، الذي قسم « بقسمة الطّبائع إلى أربعة أصناف كما للعناصر، واختصّت كلّ طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرّف في طبيعتها فعلا وانفعالا بذلك الصنف؛ فتنوّعت الحروف بقانون صناعيّ يسمّونه التكسير إلى ناريّة وهوائيّة ومائيّة وترابيّة على حسب تنوّع العناصر» [3]، والجدول الآتي يبين تصنيف الحروف على حسب العناصر السابقة (الاسطقسات) :

الحرف الناري	الحرف الهوائي	الحرف المائي	الحرف الترابي
الألف(أ)	الباء(ب)	الجيم(ج)	الدال(د)

(1) - الصفحة نفسها.

(2) - من خلال مطالعتي وجدت كتابا أظنه منسوبا للإمام الغزالي قائم أساسا على الطلسمات والسحر، يذكر طبائع الحروف كلها من حيث كونها نارية أو هوائية أو مائية أو ترابية عنوانه : ((الطب الروحاني للجسم الإنساني في علم الحرف)).

(3)- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 282.

الهاء(ه)	الواو(و)	الزاي(ز)	الحاء(ح)
الطاء (ط)	الياء(ي)	الكاف(ك)	اللام(ل)
الميم(م)	النون(ن)	الصاد(ص)	العين(ع)
الفاء(ف)	الضاد(ض)	القاف(ق)	الراء(ر)
السين(س)	التاء(ت)	الثاء(ت)	الخاء(خ)
والذال(ذ)	الظاء(ظ)	الغين(غ)	الشين(ش)

ثم راح ابن خلدون يعدد الأسرار الطبية للحروف النارية والمائية لبعض الأمراض الباردة والحارة، ثم أقر بأن الكلام عن هذا التناسب بين الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين الحروف والأعداد هو من الصعوبة البالغة بمكان.

إنَّ للحرف معان كمالية اختصه الله به، أرجعها الجيلي إلى ثمانية أطوار وهي [1] :

1/ حروف حقيقية؛ وهي أعيان الأسماء والصفات.

2/ حروف عالية؛ وهي ذوات معلومات العلم الإلهي، المعبر عنها بالأعيان الثابتة في العلم الإلهي.

3/ حروف روحية؛ وهي الأرواح النورية التي أظهر الله بها هذا الوجود، كما أظهر الكلمات بالحروف الملفوظة.

4/ حروف صورية؛ وهي جوانح هذا العالم الكلي، وجوارح الإنسان بالحكم الجزئي.

5/حروف معنوية؛ وهي حركات الأشياء وسكناتها، ينشأ منها حروف، يتركب من تلك الحروف كلمات مناسبة لحال ذلك المتحرِّك.

6/ حروف حسية؛ وهي ما تشاهد رقما وكتابة.

7/ حروف لفظية؛ وهي ما تشكل في الهواء من قرع الريح الخارج من الحلق على مخارج الحروف.

8/ حروف خيالية؛ وهي صورة تلك الحروف في نفس الإنسان عند تعلقه لها.

إنَّ اكتساب الحروف هذه القيمة العرفانية له ما يفسّره من خلال « حقيقة كن واختصاصها بكلمة الأمر، لا بخبر الماضي ولا الحال المستأنف، وظهور الحرفين من هذه الكلمة مع كونها مركّبة من ثلاثة، ولماذا حذفت الكلمة الثالثة المتوسطة البرزخية، التي بين الكاف والنون وهي الواو

(1)- يُنظر: ابن عربي الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية، مرجع سبق ذكره، ص89- 90.

الروحانية، التي تعطي ما للملك في نشأة المكون من الأثر»[1] ولعل الإجابة عن هذا التصويب التأويلي لا يمكن إثبات صحته لا على مستوى المعطى اللغوي ولا العقلي، لأنه خاضع لسلطة الكشف التي أدركها أصحابه ذوقا، خاصة وأن لفظة ((**كن**))، هي التي بها أمر الخلق والتكوين والإيجاد، يقول ابن الفرغاني: « ما من خطرة ولا حركة إلا بالأمر، وهو قوله ((كن))؛ فله الخلق بالأمر، وله الأمر بالخلق، والخلق صفته، فلم يدع بهذين الحرفين لعاقل يدعى شيئا من الدنيا والآخرة: لا له، ولا به، ولا إليه، ((فاعلم أنه لا إله إلا الله)) »[2]

إن الكلام عن الحروف والأعداد والأرواح الفلكية يحتم علينا التطرق للوفق[3] أو ما يسميه القنوجي ((علم معرفة الخواص الروحانية))، كواحد من أهم المصطلحات المشتركة بين المتصوفة والسحرة وأصحاب السيميا، يعرِّفه القنوجي بقوله : « هو علم باحث عن كيفية تمزيج الأعداد والحروف على التناسب والتعادل بحيث يتعلق بواسطة هذا التعديل أرواح متصرفة تؤثر في القوابل حسبما يراد ويقصد عن ترتيب الأعداد والحروف وكيفياتها وموضوعه الأعداد والحروف وغايته الوصول إلى المطالب الدينية أو الدنيوية أو الأخروية »[4] ويعرفه محمد بن بريكة بقوله : « هو اجتماع الحرف والعدد واللفظ في جدول واحد، وينقسم إلى تأليفي وهندسي وهما الأصل ومشترك وهو متأخر»[5]، إذن تأليف الوفق يكون باجتماع حرف وعدد ولفظ في رسم معين يمكن أن يكون مثلثا أو مربعا أو مخمسا أو غيره ، ولعل أكثر ما يستعمل إنما هو في السحر بأنواعه، وشاهده ما جاء مُتَسَّعًا تحت حجاب (تميمة) خاصة بـ ((الحفظ والمحبة والقبول))، نذكرها للفائدة والتمثيل، وإلا فهي بريد الشرك ورسول السحر نعوذ بالله منها :

ب بقرطبال 2	ط طقيال 9	د دميال 4

(1)- رفيق العجم، موسوعة المصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ، لبنان ، ط01، 1999، ص671.

(2)- أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلّق عليه وخرج آياته وأحاديثه : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط01، 1993، ص 53.

(3)- تساءل ابن عربي عن السبب في وضع من وضع هذا الوفق في شكل جدول، فقال : « عمل أكثر رجال هذا العلم لذلك جدولا، وأخطأوا فبه وما صحَّ، فلا أدري، أبالقصد عملوا ذلك، حتى يتركوا الناس في عماية من هذا الفن، أم جهلوا ذلك، وجرى فيه المتأخر على سنن المتقدم؟ » محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 204.

(4)- أبو الطيب محمد صديق خان القِنُّوجي، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط01، 2002، ص 511.

(5)- التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، مرجع سبق ذكره، ص 169.

ز زنفا 7	ه هططوش 5	ج جليش 3
و وهيم 06	ا أية 1	ح حداية 8

ولكي يتحقق هذا الوفق لابد له من التناسب والتزامن مع حركة كوكب سيَّار بعينه؛ لأنه يحمل روحا من شأنها أن تحدث التأثير المطلوب في العوالم السفلية، يقول البوني : « واعلم أن الكواكب السيارة السبعة لكل واحد منها وفق منسوب إليه، ولكل حرف من حروف الهجاء وفق، ولكل وفق تأثير يظهر منه بحسب تأثير الكواكب أو الحرف »[1]، والغريب أن أبا حامد الغزالي قد ذكر في كتابه المنقذ من الضلال ما يشبه هذا، عندما قال : « بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل، التي عسر عليها الطلق »[2]، وأتى بوقف مكون من جدولين أحدهما حرفي والآخر عددي.

إن الوفق في صورته التي أشرنا إليها، نكاد نجزم أنها مستوحاة من كتب القبالة اليهودية، يقول عاطف جودة نصر عن أولئك المتصوفة اليهود في طرائقهم الخفية في الكشف عن الأسرار المستبطنة في التوراة أو التلمود، أو الماثلة في الوجود : « وقد امتلأت تلك الكتب بالفنون الطلسمية، هي عبارة عن تعاويذ تحوي خطوطا وجداول وأعدادا سحرية تجلب الحظ وتدرأ الشر (...) وتتلخص رمزية القبالة في البحث عن المعاني المختفية وراء الحروف والكلمات العبرية، وفي تكوين كلمات وجناسات تصحيفية Anagram وأعداد تستخدم كلها لأغراض سحرية »[3] وحقيقة نحن لا نستطيع إنكار العلاقة الواضحة بين القبالة والسحر والطلاسم، إذا كانت اليهودية كلها تقوم عليه كما هو معروف، هذا من جهة، كما لا ننكر تأثر العرفان الإسلامي بالقبالة اليهودية، خاصة وأن اليهود تغلغلوا منذ وقت مبكر في جسم الأمة العربية منذ الجاهلية، وخير دليل هو انتقال الجماتريا Gematria إلى العرب في صورة حساب الجمل المعروف، وما كان له من أثر في علم الجفر عند الشيعة، حيث إن التشابه واضح بينهما في طرائق ومنهج التناظر والتناسب بين الأعداد والحروف والأشكال والجداول وغيرها، والجفر وإن كانت خلفياته في الفكر الإسلامي تنتهي إلى الرمزية الشيعية ممثلة في الإمام السادس عندهم جعفر الصادق، والذي تُروى الأخبار عنه أنه

([1])- أحمد بن علي البوني، منبع أصول الحكمة، ص 31 نقلا عن : محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، مرجع سبق ذكره، ص 169

([2])- أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال الموصل إلى ذي العزة والجلال، تح: جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط07، 1967، ص 126.

([3])- الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس /دار الكندي، بيروت، لبنان، ط01، 1978، ص 390.

مكتشفها أو بالأحرى الموحى بها إليه أو الوارث لها من أجداده، خاصة وأن الشيعة قد توسعوا في مفهومه من مجرد اعتباره « تأملات عن أحداث حاضرة ومستقبلة مستنتجة من توليفة حروف وأرقام » [1] من شأنها أن تكشف حوادث العالم، إلى كون اعتباره « وعاء من أدم (جلد مدبوغ)فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل» [2]كما يؤثر عن جعفر الصادق، وإن كان هذا المكتوب ينكره أكثر علماء السنة.

مما سبق يمكن أن نستنتج ما يلي :

*/ إن الحرف في الاصطلاح الصوفي هو الوسيلة الأبرز للتواصل بين الأولياء والعارفين، لأنه ببساطة لغة الأرواح لا لغة الأشباح .

*/ الكلام السابق يحيلنا إلى مفارقة عجيبة مفادها أن تواصل العارفين الواصلين الكمل (الأقطاب والأغواث) انتقل من خطاب الكلمة والجملة إلى خطاب الحرف، وهذا مما يبعث على الحيرة والتعجب.

*/ إن أهمية الحرف في الطرح الصوفي تتقدم على الأسماء في الأسرار والحقائق؛ إذ منها تأتي الأسماء، والجزء أو المفرد مقدم في المعرفة على الكل أو الجمع، فالجزء هو الحامل للحقائق والخفايا أكثر من الكل، ولهذا اختص الله الأحرف المقطعة في القرآن لتكون مدار إعجاز للبشر أكثر من الكلمات أو الجمل محكمة ومتشابهة.

*/ طريق معرفة سر الحرف في العرفان الصوفي هو طريق الكشف لا سواه، ولهذا استفاض الحديث عند محققي الصوفي ممن تعمقوا في هذا العلم، وتحققوا بمباحثه أن مدار معرفته والإحاطة بكثير من خفاياه وحقائقه لا يدرك بالعقل المجرد والنظر الغفل، وإنما سبيله الذوق والكشف.

([1]) - آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، مرجع سبق ذكره، ص 471.

([2])- علي بن أحمد علي السالوس، مع الاثنى عشرية في الأصول والفروع، دار الفضيلة بالرياض، دار الثقافة بقطر، مكتبة دار القرآن بمصر، ط07، 2003، ص 739.

قَائِمَةُ المَصَادِرِوَالمَرَاجِعِ

*/ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

المَصَادِرِوَالمَرَاجِعِ :

- [01] - أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلّق عليه وخرج آياته وأحاديثه : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط01، 1993.
- [02] - أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال الموصل إلى ذي العزة والجلال، تح: جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط07، 1967.
- [03] - أبو الطيب محمد صديق خان القِنُّوجي، أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط01، 2002.
- [04] - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور ،دار الكتب الحديثة، مصر، 1960.
- [05] - أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، ويليها كتاب تأويل الشطح، تح : قاسم محمد عباس، دار الندى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا ، ط01، 2004.
- [06] - أحمد بن المبارك، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدّباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط3، 2002.
- [07] - آنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل السيد، منشورات الجمل، بغداد، العراق، ط01، 2006.
- [08] - تقي الدين بن تيمية، مجموع الفتاوى، ج12، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1995.
- [09] - الحسين بن منصور الحلاج، الأعمال الكاملة، جمع : قاسم محمد عباس، دار رياض الريس للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2002.
- [10] - رفيق العجم، موسوعة المصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ، لبنان ، ط01، 1999.
- [11] - الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح، محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، مصر، 2004.
- [12] - شمس الدين بن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد ونستعين،ج02،تح : محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط03، 1996.

- [13] – عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس /دار الكندي، بيروت، لبنان، ط01، 1978.
- [14]- عبد الباقي مفتاح، بحوث حول كتب ومفاهيم الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2011.
- [15] - علي بن أحمد علي السالوس، مع الاثنى عشرية في الأصول والفروع، دار الفضيلة بالرياض، دار الثقافة بقطر، مكتبة دار القرآن بمصر، ط07، 2003.
- [16] - محمد بن بريكة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان، دار المتون للنشر والطباعة والتوزيع، الجزائر، ط01، 2006.
- [17] - محمد بن عبد الجبار النفّري، المواقف ويليه المخاطبات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1997.
- [18] - محمد العدلوني الإدريسي، التصوف الأندلسي(أسسه النظرية وأهم مدارسه)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب ، ط01، 2005.
- [19]- محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، ج01،، ج02، ج3، ج04، ج12، تح: عثمان يحيى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1992.
- [20] - ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المقدمة، ج02، دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان، ط03، 1967.
- [21] - يوسف زيدان، ابن عربي الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية، دار الأمين، القاهرة، مصر، ط01، 1999.